

## سندباد مصرى أو جولات فى رحاب التاريخ

دار المعارف بمصر — ١٩٦١

عاد السندباد المصرى ( الدكتور حسين فوزى ) من سفره الطويل وقد  
عودنا أن يعود محملاً بالطرائف وأن يشرك قارئيه فى التمتع بلذة الذكرى والفرج  
بعد الشدة وما عانى من مشقات الطريق . ويحاول الدكتور فوزى أن يخفى  
ما عانى ، فزعم أن لا فضل له فى هذا الكتاب ؛ إلا أنه رسم خطته ونظم  
فصوله ، وأضاف أمراً له خطورته فقال إنه نظمه تبعاً لانفعالاته الشخصية بتاريخ  
بلادته ، وأضاف أيضاً أمراً آخر له خطورته مؤداه أن الحقيقة فى مسائل الرأى  
بعيدة المنال .

ويقول الدكتور فوزى أنه منذ زمان طويل وهو يطمع فى وضع كتاب على  
هامش التاريخ يكون صورة من ملحمة هذا الشعب الذى يفخر بأنه واحد من  
آحاده ، وجاءت ثورة يوليه ١٩٥٢ فأحس فيما يشبه الإلهام بأن فجراً جديداً  
صحيحاً لا كاذباً قد طلع فى أفق التاريخ المصرى ، وربما كان ذلك الفجر هو  
الذى أنار له طريقه إلى تأليف هذا الكتاب الذى لم يكن فى الإمكان كتابته  
قبل أيام هذه الثورة .

وقد وصف الدكتور فوزى نفسه بأنه ليس مؤرخاً ، وإن كان غير مجرد تماماً  
من الإحساس بالتاريخ ، وأنه اعتمد فى كتابته على الخليلجات الروحية التى أشار  
إليها ، وعلى ما طالع من كتب الأولين والآخرين فى تاريخ بلادته ، وعلى القليل  
الذى عاشه من ذلك التاريخ بلحمه ودمه وتفكيره ، فكتبه فى مجبوحه الأدب  
والفن : حرية فى الفكر وتحرر فى الأسلوب . فكتابه أدبى محض ، وطلب أن  
يحاسب عليه فى حدود الأدب والفن ، إلا أن واجبه نحو حقائق التاريخ اقتضاه

(١) هذا المقال آخر ما كتب المرحوم الأستاذ محمد شفيق عُربال بخط يده لهذه المجلة .

أن يذيله بمجمل لتاريخ مصر، ورجا القارىء أن يلقى عليه نظرة سريعة قبل البدء بمطالعة الكتاب على أن يعود إليه كلما دعاه إلى ذلك داع .

ويقول الدكتور فوزى أن دوره كان أشبه بدور المخرج السينمائي الذي لا يكتب القصة ، ولا يستخلص السيناريو ، ولا يضع الحوار ، ولا يصمم الديكور ولا يعمل مع أجهزة الإضاءة ولا يمثل ، ولا يصور ، إنما هو يستخدم كل ما تضعه حرفة السينما وصناعتها وفن رجالها ونسائها بين يديه من إمكانات ، ليجمع ذلك في صورة تتجلى في ذهنه أولاً ، وقد ينجح في تنفيذ الصورة الذهنية وقد يخيب .

ومعنى هذا فعلاً أنه رجع للنصوص ، وكون منها المادة أو الصورة ، بل إن بعض فصول الكتاب عبارة عن نصوص تاريخية عدلت تعديلاً طفيفاً . ومهمة المؤلف لم تزد حسب قوله عن مجرد ترتيب الوقائع ترتيباً درامياً ، هذا الترتيب الدرامي له أثره في أسلوب الكتاب ، من أوله لآخره ، في الموضوعات التي أثبت ، والموضوعات التي أهمل ، في التحول إلى العامية في بعض الألفاظ وبعض التراكيب .

وسنرى أن الترتيب الدرامي أدى إلى انحراف المؤلف عن قصده : كان قصده أن يكون كتابه كما قال — شعب نامه لا شاه نامه . ولكن الدراما انتهت بأن تكون شاه نامه لا شعب نامه ، فلا تكون دراما إلا حول أحداث جسام — ولا تكون أحداث جسام إلا حول الذين اقترنت أسماؤهم بتلك الأحداث الجسام .

وإليك البيان بأقسام الكتاب الثلاثة : أولاً — الظلام وبه مشاهد الفتح العثماني ، وقدم الفرنسيين ، وما جرى بين علي باشا الطرابلسي والمماليك ، وارتقاء محمد علي الولاية ، وترجمة أغنية شعبية تبكي المجندين ؛ ثم آراء المؤلف فيما كان يجب أن يكون عليه الاقتباس في الحضارة العربية .

ثانياً — الخيط الأبيض والخيط الأسود ومشاهده : ألف عام ، وصراع القومية المصرية ، وثلاث ملكات ( أم خليل و بنت الزمار ، أي كليوباترة . والصعيدية أي حانشبوت ) ، والقبراط الخامس والعشرون . . . . .

ثالثاً — الضياء ومشاهده ، من قبل التاريخ ، ومن الحضارة المصرية القديمة .

\* \* \*

ولنبداً — كما طلب إلينا الدكتور فوزى — بالمجمل في آخر الكتاب — وهو مجمل جيد حقاً ، وجودته في أجزائه القديمة أظهر ، فما تعلق منه بالحضارة المصرية القديمة مستند إلى دراسة حقيقية للآثار ، والانفعال هنا مشروع ، وما تعلق منه بالمسيحية في مصر به أصالة ، وهو مما يجمله أو لا يهتم به الدارس المصري . ومن صفات المجمل عنايته بهذا الموضوع ، وكما تقدم بنا الزمن نحو زماننا كلما غلبت على صفة الانفعال ما يرضى بالحكم المتزن ، ولا يهدى نحو التقدير الصخبيح .

\* \* \*

نحن الفرس . نحن المقدونيين ، نحن الرومان ، نحن الروم ، نحن العرب :  
المغاربة ، الكرد ، أبناء . فرغانة . وكرديستان ، نتوكل بأمر الحرب ... الخ .

أما أبناء مصر فصناعتهم بناء الحضارة ، ولكن ألم يتكون أبناء مصر ، ممن كانوا عرباً ومغاربةً وروماً الخ .

كتاب الدكتور فوزى ممتع لأقصى حدود الإمتاع ، ولكنه خطر لأقصى حدود الخطورة ، وإنا لا نزال نترب كتابه شعب نامه .

محمد شفيق غربال